

العناصر الفارسية في بناء

بقلم الاب لامس البوعوي

١

المسائل المهمة التي لم يتمرّض لها جغرافيو العرب إلا نادراً مسألة اصول الشعوب الساكنة لبنان في القرون الوسطى . وذلك ان لبنان لم يكن ليستدعي انتباه اولئك الجغرافيين ، فان سكانه المسيحيين في اكثرهم لم يخلصوا لسلطة الفزاة خضوع جيرانهم سكان الداخلية . على انه من الخير ان نلفت النظر ، بهذه المناسبة ، الى الاسطر القليلة التي خصها بوضعنا ، في اواخر القرن التاسع (سنة ٨٩١ م . او ٢٧٨ هـ .) ، المؤرخ الجغرافي اليعقوبي في مؤلفه المعروف « بكتاب البلدان »^{١)}

يطلمنا اليعقوبي ، في كلامه على بعلبك ، ان « اهلها قوم من الفرس » . وهو يورد الملاحظة نفسها في كلامه على عرقة ، مدينة صغيرة في شمالي شرقي طرابلس ، فيقول : « فيها قوم من الفرس ناقلة » اي قدموا اليها من الخارج . اما في ما خص طرابلس فيذكر سكانها الفرس ، ويزيد ان « معاوية ابن ابي سفيان كان قد نقلهم اليها » . ثم يذكر مدن جبيل وصيدا وبيروت ويؤكد قائلاً : « واهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية ابن ابي سفيان . » وفي هذا التأكيد بعض المبالغة دون شك . فيجدر بنا ان نفتحهم قول اليعقوبي بشي . من التحفظ فنمرف ان في تلك الكور بعض العناصر

(١) طبعة دي غريب . ص ٢٢٧ ، وهو المجلد السابع من « خزنة جغرافي العرب » .

الفارسية . وذلك ان اليتقوي نفسه يشر الى سكان من غير الفرس كقبي عاملة ، في جبال صيدا^(١) .

على ان المهم ان نعرف من كان اولئك الفرس ، وما الذي دفع بهم الى السواحل اللبنانية ؟

لا يخفى ان فتح العرب لسورية حصل كجميع الفتح شيئاً فشيئاً وبظروف متفاوتة . فبينما كان الفزاة يدخلون بسهولة سورية الشرقية المفتوحة سهولها على الصحراء ، كانوا يتوقفون امام المناطق الجبلية ، فتصدّم عنها طبيعة الارض فلا يفكرون بالتوغّل فيها . اما الساحل اللبناني فلم يفتحته العرب الا «فتحاً يسيراً» على قول البلاذري^(٢) . وهو تصوير لطيف يمكن ان نفهمه بمعانٍ عدة ، فيكون المقصود به فتحاً جزئياً ، او فتحاً سطحياً ، او فتحاً سهلاً . على ان المعروف ان العرب لم يهتموا بهذا الفتح الا ليضعوا الجزية على الساحل المذكور ، فلم يفكروا اولاً باحتلاله احتلالاً عسكرياً . وهكذا رأينا المدن اللبنانية ، في ربيع القرن الاول للهجرة ، تنتقل عدة مرات من العرب الى البيزنطيين ومن هؤلاء الى اولئك . والسبب في ذلك ان البيزنطيين كانوا لا يزالون ميطرين على البحر ، ذاك النصر المضطرب الذي كان يخافه كل الخوف بدو الصحراء المتشبثون بيابتهم .

على ان هذه الحالة لم تكن لتروق العرب ففكروا بالتخلّص منها . فقام معاوية ، على ما يروي البلاذري^(٣) ، بجلاء كثير من اهل تلك المدن الساحلية . وقد نقل صالح بن يحيى في «تاريخ بيروت»^(٤) كلام البلاذري ملخصاً ، ولكنه بدل «جلاء» وضع «خلى» فالتى معنى قوله ان معاوية خلى في بيروت كثيراً من اهلها .

ومها كانت الرواية التي يختارها المطالع ، فان النتيجة واحدة وهي

(١) الكتاب المذكور : ص ٢٢٧ ، الطر ٣

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، الطبعة الاولى ، ص ١٢٦

(٣) الكتاب المذكور : ص ١٢٦ ، الطر الاخير

(٤) طبعة الاب شيخو اليسوعي ، الطبعة الاولى ، ص ٢٢

ان المدن الساحلية اخذت تقصد من سكانها منذ الفتح العربي . فكان من دها . معاوية انه عمل على سد هذه الثلم بناصر جديدة من السكان تكون اوفر موالاة للفاتحين من السكان الاصليين . ولم يتراجع امام شيء في هذه الغاية ، وفي سبيل اقرار السلطة العربية في طرابلس ، تلك المدينة التي كانت تسيطر ، مع مدينة عرقه ، على وادي النهر الكبير المكون طريقاً فسيحة مفتوحة امام من يقصد سورية الداخلية من القزاة . ولما كان سكان طرابلس يتذمرون من ذلك التغيير في نظام الحكم ، اسكن معاوية بينهم « جماعة كبيرة من اليهود »^(١) .

ولائل ان يسأل : لماذا لم يسكن معاوية العرب في تلك الانحاء بدل

اليهود والفرس ؟

اما الجواب فقد تبطننا فيه في احد اجابتنا السابقة^(٢) وخلاصته ان البدو كانوا يتفرون دائماً من الاقامة ضمن اسوار المدن . فكان معاوية ، كلما ارادهم على ذلك ، آب بالفشل . وقد لزمه كثير من السياسات وزمن طويل حتى استدرجهم الى سكنى دمشق وغيرها من مدن سورية المحاورة لصحرائهم . وفضلاً عن ذلك فان البدو لم يكونوا ليرضوا بسكنى السواحل اللبنانية حيث يكونون عرضة للمخاطر الدائمة ، وهم بين البحر الزاخر بالبيزنطيين والجبل الحافل بشمرب لم تكن قد خضعت لسلطة العرب . ومما يؤيد عظم الخطر البحري وجرأة قرصان البيزنطيين الذين كثيراً ما كانوا يهجمون على ميناء بيروت فيقتصبون المراكب التجارية ما ذكره ابن عساکر^(٣) ، على عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣) كما يظهر ، قال : « فاغار الروم على جماعة من تجار مرسية بجهة بيروت وذهبوا بهم فرأوا على باب ميناء بيروت واهلها مسمكون بأيديهم هية لهم » . ولم يذكر ابن عساکر وجود حامية عربية في بيروت .

(١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ١٢٧

(٢) راجع كتابنا *La Bâdia et la Hira sous les Omayyades*, pp. 99 sqq. dans MFOB, IV, 1910

(٣) تاريخ دمشق ، طبعة بدران : ٤٧:٣

وشمره طوية بوجوب احتلال السواحل احتلالاً عسكرياً . فصل على ترغيب الجنود المربية في الإقامة هناك بان اخذ يقطعهم القطنع . على ان حالتهم كانت عرضة للقلق والاضطراب ، لانهم كانوا يخشون ، من يوم الى آخر ، نزول البيزنطيين الى البر . فكانوا ، اذا شعروا بخطر من جهة البحر ، يسرعون بقطع جبال لبنان وبالالتجاء الى مراكز حمايتهم في الداخلية . وهي الحالة نفسها التي تتحقق وجودها على السراجل المذكورة ، ستة قرون بعد الفتح العربي ، اي على اثر الحروب الصليبية^١ . حتى ان الممالك ، الذين كانوا يخشون رجوع الفرنجة من وقت الى آخر ، اخذوا بتخريب مدن الساحل مكثفين بان بان يراقبوا المدوّ من بعلبك ومن دمشق ، حتى اذا انبأتهم رسائل حمام الراجل بظهور الاشعة اللاتينية في عرض البحر ، انحدروا بجيوشهم للملاقاة .

فلا غرابة ، والحالة هذه ، في ان تكون مراكز الحاميات الفينيقية مرغوباً عنها في القرن الاول للهجرة . فكان يتجنبها العرب لما كانت تمثل لهم من المخاطر . ولم تكن السلطة تُرسل اليها الا المتطوعة من الراغبين في الجهاد حتى الاستشهاد . ولهذا اتاح الخطّ لبيروت ان ترى بين جدرانها عدداً من رجالات التاريخ الاسلامي الاول . وكانت حمايتها تملق بجمد دمشق او منطقتها الحربية فكان يهبها من رغب بالجهاد الخطر من المتطوعة . وقد روى ابن عساكر^٢ ان سلمان الفارسي الشهير ، لما زار مدينة دمشق ، طلب ان يجيى ابا الدرداء . فقيل له انه « رابط » في ساحة الجهاد . فقال : واين رباطكم يا اهل دمشق ؟ قالوا : في بيروت . فسار سلمان الى بيروت راجياً ان ينال هو ايضاً حظاً من الجهاد . وقد نال مكحول الشهير لقب « البيروتي » لانه جاهد في بيروت عدة سنوات . وكذلك رابط بيروت مدة طويلة الامام الازاعي^٣ . ومعنى « رابط » هنا اقام في حمايتها مستمداً للحرب او الجهاد ، لا معدلاً زاهداً عاكفاً على التأمل والصلاة كما قد يشرح بعضهم هذه اللفظة .

(١) اطاب في ذلك . Lammens, *La Syrie*, II, p. 2 sqq.

(٢) ابن عساكر : الكتاب المذكور ٣ : ٢٦٤

(٣) صالح بن يحيى : الكتاب المذكور ، ص ٢٤

فان « الرابطة » ، في القرن الاول للهجرة ، لم تكن تخصص الا بالفن الحربي ، ولم تكن تشمل الكلمة نفسها الا في الالة الحربية^١ . اذ معنى الزهد والاعتزال والمكرف على الصلاة و« المرابطة » فتأخر عن المعنى الاول . وقد بلغ من شدة الخطر في السواحل الفينيقية ان عمال الولايات المراقية ، وهي اكثر المناطق شتياً لما كان يجتمع فيها من القبائل المقلقة ، كانوا يهددون المشايخين برسالمهم الى حايات فينيقية ، وهي « المسائرة »^٢ كما كان يُقال ، فيخلد هؤلاء الى السكنية . حتى اذا عاودوا الشغب ارسلتهم السلطة الى شواطئ لبنان يربطون بها مدة معلومة فيمردون هادئين ساكتين .

على اثر مقتل علي اصبح معاوية سيّد الخلافة الوحيد ، فرأى ان يأخذ بالوسائل النفاذة لقمع الثورات الداخلية وتعزيز الحامية في الثغور . فكان من جملة تلك الوسائل تفكيك عرى الجماعات المشاغبة وجملاء البض منها . وقد عاونه في ذلك زياد ابن ابيه^٣ عامل الولايات الشرقية .

كان الفتح العربي قد ترك ما بين النهرين ، دجلة والفرات ، الوفاً من الساكنة الفارسية الذين كانوا يرتقون بالمقاتلة . فضلاً عن المدد الوافر من الرُطبة والياضجة^٤ ، وهم ايضاً من الساكنة غير النظامية الذين كان يجلبهم الساسانيون من الهند فيتأجرونهم في حروبهم . وكان المقاتلة الفرس يتمازرون بلونهم المائل الى الحمرة فدعاهم العرب « بالحمراء » . وكان اكثرهم قد دنوا بالاسلام ظاهرياً لقاء معاش تدفمه الحكومة . على انهم ظلوا ، وابنائهم من بعدهم ، غرباء في ذلك المجتمع العربي لا تقاليد لهم يكتنون اليها ، ولا مساواة تعدهم بالعرب على رغم اسلامهم . فكانوا يلبون كل داع الى ثورة وينصرون كل قائم بجمركة . ولم تكن ارض العراق لتخلو من هذه الحركات ولاسيا بعد

(١) من ذلك قول القرآن ٣ : ٢٠٠ ، ٨ : ٦٢

(٢) راجع الطبري ، طبعة دي غويه ، ١ : ٢٩٠٩ - ٢٩١٥ : ٣ : ٢٥٨ ، ١

(٣) اطاب كتابنا Ziād ibn Abibi, p. 109

(٤) اطاب في ذلك مقالة فرّان في الملة الاسلامية . [Encycl. de l'Islam] Ferrand

موت علي . فشامت السلطنة ان تتلافى هذا الخطر الدائم ففرقت « الحمراء » أولاً واقامت قسماً منهم بالبصرة وقسماً بالكوفة . حتى رأى معاوية بثاقب بصره حلاً اوفى لهذا المشكل . فعمل ، بوقت واحد ، على تهدئة المراتق وتأمين سورية فسير « الحمراء » الى السواحل اللبنانية وعهد اليهم بحفظها . « فهم بها يُدعون الأرس » كما يفيدنا البلاذري^(١) . ثم قام معاوية بالصل نفسه في ما خص جموع المقاتلة من المنود كاللوط والسيابجة « فنقل منهم الى سواحل الشام بشرأه^(٢) . » ونقل غيرهم ايضاً ، في سيل التاية نفسها ، الى مناطق انطاكية التي كانت الحروب البيزنطية قد اخرجت الكثير منها وقتلت فيها عدد السكان .

هؤلاء هم الفرس الذين اشار اليمقوبي الى وجودهم في فنيقية . وقد عرفنا السبب في نقلهم الى السواحل والنساية من اسكانهم فيها ، وهي أولاً غاية عسكرية ثم غاية عمرانية لسد الثام التي احدثتها الحروب في السكان . عرفنا ذلك بفضل المعلومات التي حفظها معاصر اليمقوبي ، المؤرخ البلاذري المتوفى سنة ٨٩٢ . ونعرف بواسطة الكندي^(٣) وابن الاثير^(٤) انه كان من اختصاص هؤلاء الفرس في مدن السواحل ، كما كان من اختصاصهم في العرائق ، ان يسهروا على السجون ويراقبوا خصوصاً المبعدين السياسيين .

ولكن هناك امراً غريباً في ما خص موضوعنا . فان البلاذري نفسه^(٥) يزعم ان العرب عند دخولهم سورية وجدوا « فرساً » مقيمين في بعلبك . يظهر ذلك من نص عهد كسرة لاهل تلك المدينة حول السنة ١٥-١٦ للهجرة وفيه يتم سكان بعلبك الى ثلاثة اقسام : روم وفرس وعرب . على ان انشاء هذا العهد ، الذي لم يذكره الا البلاذري وحده ، يخرج عن المعتاد وهو امر يستحق الملاحظة والاستقراب . ولا يقل غرابة عن ذلك ما ورد فيه من الشروط

(١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ٢٢٨ ، السطر ٧

(٢) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ٢٢٦ ، السطر ٨

(٣) الكندي : ولاة مصر ، طبعة Guest ، ص ٨ ، السطر الاخير

(٤) ابن الاثير : أمد القابة ٢ : ٢١ ، وايقرأ : « فارسي »

(٥) البلاذري : ك . م . ص ١٢٠

وتحديد الحالة الياسية وعناصر السكان ما لم نهله في امثاله .
وليس الصك المذكور مطامدة ولا اتفاقاً ، بل هو ، في الحقيقة ، مثال لتحرير
جواز لشخص مجهول او « كتاب امان لفلان بن فلان » . وهو لا يحمل توقيع
احد ولا اسم قائد ولا شامد ، كما نرى في جميع اليهود والامانات التي وصلتنا
من ذاك العصر . وقد لاحظ الدوق كياتاني " ان هذا السند محوّر ومبدّل فيه
بدليل تقابل لفظتي « الجزية » و« الخراج » واستعمالهما بمنيين متغيرين ، وهذا
التمييز متأخر دون شك عن القرن الاول للهجرة .

ومها يكن من الامر فاننا لا نرى شرحاً وافياً لوجود الفرس في بعلبك
قبل الهجرة .

بما لا شك فيه انه كان في بعلبك ، بعد ذاك العهد ، كثير من
السكان ينتسبون الى الفرس . وقد ذكر منهم ابن عساكر^(١) في ترجمة رجل
اسمه محمد بن وضي بن بلال بن فزارة . على انهم كانوا قد استعربوا كما يظهر
من هذه الاسماء المتأبمة . وانكن المشكل الذي لا يمكن حله هو هل ينتمي
هؤلاء الفرس الى « الحمر » الذين سيرهم معاوية كما تقدم ، ام يرتقون الى
الفرس الذين ذكرهم البلاذري مقيمين في بعلبك قبل الفتح الاسلامي ؟

(١) اطلب *Annali dell' islam*, III, 435

(٢) في مخطوطة دمشق ، المجلد ١٦ ، وهي غير مرقة الصفحات .

(للبحث صلة)

